المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دائرة الشؤون الثقافية والنشر -
الجمهورية العراقية
المجلد الثاني عشر - العدد الثاني - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٢

WWW.ATTAWEEL.COM

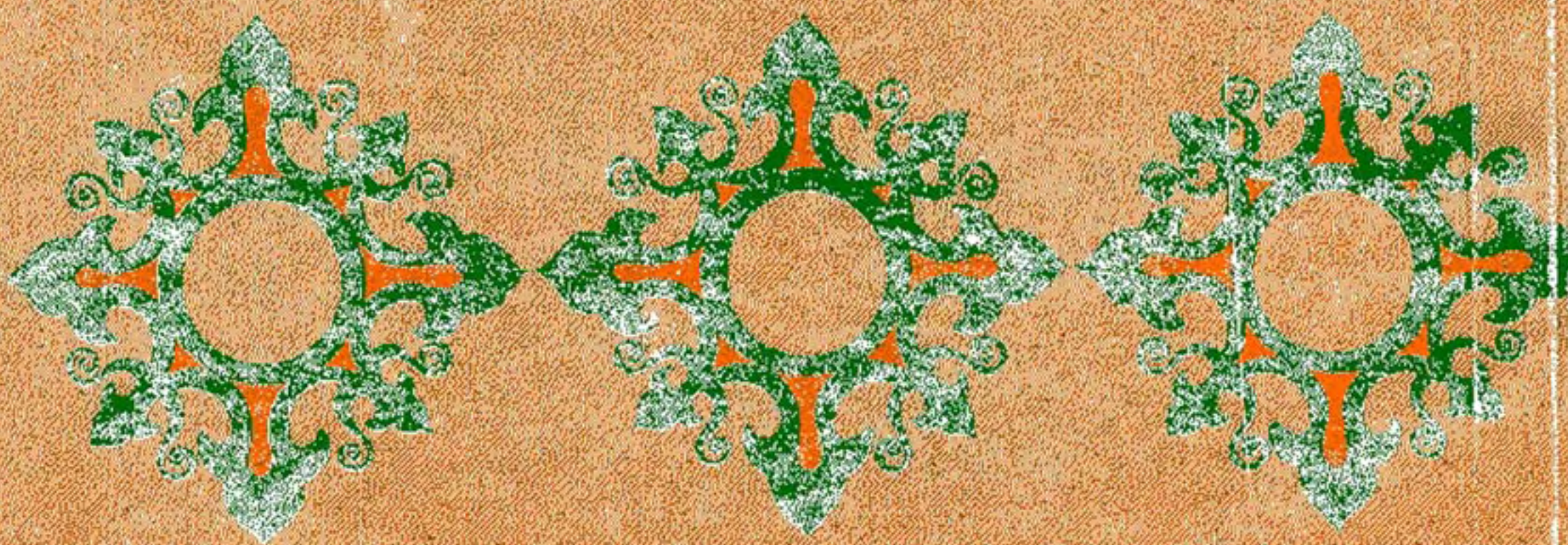

أسد الدين محمد

انتقال الطب العربي الى الغرب

معابره ... وتأثيره

بقلم الدكتور

محمود الحاج قاسم محمد

مستشفى الأطفال ـ الموصل ـ العراق

اصبح في حكم المؤكد لدى مؤرخي العلوم اولا بأن تراث اية امة هو بذرة بقائها ودعامة وجودها الحضاري ، ودراسته يعني تعرفا على الذات واستشفافا للمستقبل . وان اية امة لن تستطيع ان تسير قدما الى الامام بخطى راسخة شجاعة الا اذا وعت جذور تراثها وربطت خيوط حاضرها ومستقبلها بما ماثلها وشابهها في صفحات ماضيها سواء القريب منه او البعيد .

وثانيا ـ بأن العلوم على اختلافها ليست من صنع امة واحدة ولا شعب معين ، وان الازدهار الذي نجده في مختلف الميادين انما هو محصلة حضارات متعاقبة على مر العصور . وكل امة تدعي انها صاحبته وتجرد غيرها منه تكون قد جانبت الحقيقة والواقع .

« فتح العرب تحت راية الاسلام نصف العالم في مدة قرن واحد ثم كان اعظم همهم ... ان يضموا الى عظمة الفتح العلم فلم يكمل القرن التاسع حتى كان العرب كما يقول لوكليرك قد ملكوا جميع علم اليونانيين ، فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في الدنيا .... كان في بغداد نحو مئة مترجم ينقلون كتب اليونان الى العربية والسريانية، وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة في اسبانيا مركزاً لترجمة الكتب العربية الى اللاتينية »(١) .

فهكذا اقتبسوا علوم امم سبقتهم واخرى عاصرتهم مستفيدين منها وبعد ان هضموها اضافوا اليها الكثير من اكتشافاتهم وتجاربهم العلمية الخاصة ، ثم جعلوا بقية الأمم تستفيد منهم ومن علومهم بنفس الطريقة التي استفادوا هم فيها من الأمم الاخرى ؛ ونجيز لأنفسنا القول بأن بعض العلوم والمعارف لولا اهتمام العرب والمسلمين بنقلها وشرحها لضاعت وعفا عليها الزمان .

وللدكتور الجليلي راي لا نرى باسا من ذكره هنا لارتباطه الوثيق بالموضوع الذي نحن بصدده يقول :

« ان اثر العرب في حصول اوربا على العلوم والطب والفلسفة وتاثيرهم العميق في نهضتها امر متفق عليه ، ولكن الراي السائد ان ذلك تم عن طريق ترجمة عدد كبير من كتب الطب والعلوم والفلسفة من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية وان الكتب التي لم تترجم لم تكن ذات تأثير . كما قيل ان الكتاب العربي الذي لم تطبع ترجمته اللاتينية لم يطلع عليه الاوربيون ؛ وهذا غير صحيح فكثير من الكتب ترجم ولم يطبع كما حدث لكتب اندريا الپاكوس ولكن الترجمة كانت موجودة ثم ان بعض الكتب طبع بعد وفاة مؤلفيها مثل ترجمات الپاكوس وكتاب كولمبو ، وله علاقة بالدورة الدموية .. ثم ان اطلاع الأطباء الغربيين على الطب العربي اطلاعاً

---

(١) الشطي ـ الدكتور احمد شوكت / العرب والطب ص ١٢٣ .

WWW.ATTAWEEL.COM

مباشراً نتيجة لمعرفتهم اللغة العربية اولاختلاطهم بالأوساط الطبية العربية ، امر لم يلق الاهتمام من قبل الباحثين العرب او الغربيين »(٢) .

لم يكن في العالم المتحضر فيما بين منتصف القرن الثامن والقرن الخامس عشر علم طبي يعتد به الا ما كان منه عند العرب والمسلمين وما عند غيرهم لم يكن الا نقلا عنهم ؛ ولم يشك احد من اهل القرون الوسطى في تفوق العرب والمسلمين في الطب علماً وعملا وتنظيماً هذه حقيقة تاريخية هي الأخرى متفق عليها .

في هذا الوقت بالذات كانت اوربا تتخبط في دياجير الجهل والظلام وتعسف رجال الدين ضد العلم والعلماء (خاصة بعد انهيار الحضارة الأغريقية الرومانية نتيجة للغزوات البربرية التي قامت بها القبائل الشمالية ، حيث قضت عليها قضاء مبرماً بعد ان كانت هذه الحضارة هي العلامة المميزة لأوربا) ، وما عندهم من العلم والثقافة كان محصوراً في مكتبات اكثرها في الاديرة وبعضاً منها في قصور حكام الأقطاع وجل ما كانت تحويه هذه المكتبات من الكتب كانت دينية للهداية وتواريخ حياة القديسين ، وحظ الطب منها قليل جداً لا يكاد يذكر وهذا القليل لم يكن في احسن الأحوال علما ؟ يعتد به وانما عبارة عن معلومات بدائية متوارثة جامدة لدى بعض الرهبان الذين كانوا يتولون معالجة المرضى .

« ودامت حال الطب على هذا النحو حتى حرم جمع اساقفة تلرمونت في سنة ١١٣٠م ثم ليطران في سنة ١١٣٩م وتورني ١١٦٣م ، على الأساقفة مزاولة الطب ؛ فاصبحت هذه المهنة حرفة علمانية . وقد قارن هذا التغيير ظهور اول جامعات على وجه التقريب ، فانحدر الطب الى اتجاهات جديدة رسمها الى حد كبير ما اكتسبه من الشرق »(٣) .

اما الطرق التي سارت فيها العلوم العربية ومنها الطب وعبرت الى الغرب واثرت فيه فكانت :

١ ـ طريق اسبانيا (الأندلس) :

لقد استمر تواجد المسلمين في الأندلس مدة ثمانية قرون (١٢هـ-٨٩٧هـ / ٧١١-١٤٩٢م) . وفي عهد هشام بن عبدالرحمن الداخل (٧٨٨-٧٩٨) جعلت العربية لغة التدريس في جميع المعاهد ، وانشأ الحكم مدرسة في قرطبة جاءها الطلبة المسلمون والمسيحيون من اسبانيا واقسام اخرى من اوربا وافريقيا واسيا واستدعى اساتذة من المشرق وانشأ مكتبة عظيمة حوت مائتي الف وفي رواية اربعمائة الف الف كتاب وادخل العرب المسلمون صناعة الورق في الأندلس حوالي سنة ١١٥٠م ثم انتقلت الى فرنسا والى ايطاليا سنة ١١٧٠م ومن ثم انتشرت في باقي اجزاء اوربا وتاثير ذلك على انتشار الكتب والثقافة ثم الطباعة امر بين .

« وانتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً بين الأسبان المعايشين للعرب ولم يكن قد مضى على الفتح العربي نصف قرن من الزمن ، وكانت هناك ازدواجية لغوية عربية ورومانية بين عامة الشعب الأندلسي واصبحت العربية الفصحى لغة الثقافة للأسبانيين ، والى جانبها اللاتينية الفصحى وكان مجال استعمالها ضيقاً . وبقيت اللغة العربية الأسبانية حتى القرن السادس عشر الميلادي في اسبانيا » . « ولفهم انتقال الثقافة العربية الى غير العرب في اسبانيا وعن طريقها ، لابد من معرفة تكون المجتمع الأندلسي فهو يتكون من الفئات التالية :

١ ـ المسلمون : الفاتحون والمهاجرون الى الأندلس .

٢ ـ المولودون : الأسبان والقوط اللذين اعتنقوا الأسلام باعداد كبيرة وحسن اسلام معظمهم واستعربوا بسرعة فائقة واصبحوا جزء من المجتمع الأندلسي ؛ يشكلون نسبة كبيرة منه .

٣ ـ النصارى المعاهدون الذين لم يعتنقوا الاسلام ويسمون المستعربين Mozarabes وكانوا عادة في المدن الكبيرة .

٤ ـ بقية السكان من اليهود وكانوا يسكنون (حارات اليهود) والموالي (الصقالبة) .

---

(٢) الجليلي ـ الدكتور محمود / تاثير الطب العربي في الطب الاوربي في القرون الوسطى والنهضة الاوربية ـ بحث ـ مجلة المجمع العلمي العراقي الجزان الثالث والرابع ـ المجلد الثاني والثلاثون / تشرين الاول ١٩٨١.

(٣) غليونجي ـ الدكتور بول / ابن النفيس ـ سلسلة اعلام الاسلام (٥٧) ص ١٤ .

وبعد بداية الاسترداد الاسباني Reconquista الذي استغرق اكثر من اربعمائة سنة ، واحتلالهم المدن والمواقع واحدة بعد اخرى ظهرت فئتان اخريان :

١ ـ المدجنون Mudjares ، وهم المسلمون الذين بقوا تحت حكم الاسبان في المدن التي استولوا عليها .

٢ ـ العرب المتنصرون ، المورسكيون Moriscus وهم المسلمون الذين بقوا بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ ، وجرى تنصيرهم باعداد كثيرة ولكنهم بقوا يمارسون شعائر الاسلام خفية ثم حدثت ثورات من قبلهم ، وصدر قرار الاخراج سنة ١٦٠٩ فتركوا البلاد ويقدر عددهم بنصف مليون ، ذهب بعضهم الى فرنسا ولكن اكثريتهم ذهبت الى شمال افريقيا »(٤) .

حمل العرب المسلمون فترة مكوثهم في اسبانيا مشعل العلم والحضارة ، واعتمدت جميع مراكز التعليم في اوربا على طليطلة واشبيلية وقرطبة حيث كان المستعربون وطلاب العلوم يشدون الرحال اليها وفي عام ٩٢٥م ارسل اوتو الكبير ملك الالمان راهباً من اللورين الى قرطبة فدرس العلوم والثقافة العربية وحمل معه المخطوطات العلمية العربية وبنفس الوقت ادخلت العلوم العربية الى الجزر البريطانية واشهر هؤلاء جربرت او البابا سلفيستر الثاني المتوفي سنة ١٠٠٢م حيث كان من اوائل المهتمين بالثقافة العربية وهو الذي ادخل الارقام العربية الى اوربا بدل الارقام الرومانية .

واستمرت طليطلة محافظة على مركزها العلمي حتى بعد غزو الفونسو لها واحتلالها عام ١٠٨٥م حيث انشا فيها المطران ريموند عام ١١٢٠م حركة ومدرسة واسعة للترجمة واستدعى اليها علماء من مختلف الاديان ليقوموا بنقل الكتب والعلوم العربية وترجمتها « كما كانت بغداد فيما سبق مركز نقل الثقافة اليونانية الى العرب . ولكن شتان بين الاثنين ، فان المعربين العرب كانوا الى جانب عظيم من النزاهة في النقل والمقدرة في العربية والبونانية معا ومن التضلع في الموضوع الذي يترجمونه ، كما كانوا يتمتعون بعناية الحكام ومعونتهم المادية والمعنوية . بينما كان المترجمون الاوربيون الذين نقلوا العلوم العربية الى اللاتينية قليلي المعرفة باللغة التي ينقلون عنها وفي الموضوع الذي ينقلونه وبعضهم كانت تنقصه النزاهة »(٥).

ومن مدرسة اشبيلية ايضاً (١٢٠٤م) تخرج كبار الفلاسفة الغربيين واشهر المترجمين من العربية الى اللاتينية في اسبانيا كان جيرارد الكريموني ويسمى الطليطلي كذلك Gerardus Cremonensi او Teletanum (١١١٤ ـ ١١٨٧م) الانكليزي انتسابا والمنشأ قدم من ايطاليا سنة ١١٥٠م واستوطن في اسبانيا وينسب اليه ترجمة ما يقرب من مائة كتاب ويقال بان بعضها من نتاج تلاميذه وبعضها بالاشتراك مع غيره خاصة غالب Gallipus وهو مستعرب وكان نزيهاً وذا كفاءة عالية في الترجمة وحسن الاختيار للكتب التي ترجمها ومن ذلك القسم الجراحي من من كتاب التصريف للزهراوي وكتاب المنصوري للرازي والقانون لابن سينا . وكان موسوعياً في الترجمة حيث قام ايضاً بترجمة كتب في علوم اخرى غير الطب كالفلك والرياضيات والادب .

ومن بين المترجمين حنا الاشبيلي الذي ترجم بعض تآليف بن سينا وقسطا بن لوقا والفرغاني ؛ ودومنكس غند سالنوس ؛ بن داؤد العبري ، وجند يسالغيني ترجم كليات بن رشد وارجوزة بن سينا وتعليق بن رشد عليها . كما ترجم كتابي النفس والشفاء لابن سينا . وهورمانوس الدلماسي ترجم في تولوز كثيراً من كتب الطب والفلك . وفي تاريون ترجم ابراهيم بن عزرا مؤلفات البيروني .

وكان ادلر الباثي اول المستشرقين الانكليز والذي ترجم الى اللاتينية عام ١١٢٦م فهارس المجريطي في الفلك والرياضيات والذي كان لكتاباته اثر فعال على روجر باكون وعلى تاسيس الطريقة العلمية التي نسبت لباكون ؛ ويقال بأن احد الاساتذة العرب ذهب الى انكلترا من اسبانيا لالقاء محاضرات في الطب .

ولابد من ذكر شيء عن الراهب سرفيتوس الذي كان له الاثر الاكبر في نقل اراء ابن النفيس حول الدورة الدموية . ولد سرفيتوس في اسبانيا

---

(٤) المصدر السابق ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

(٥) خير الله ـ الدكتور امين اسعد/الطب العربي ص٢٠٢ .

سنة ١٥١١م وقرأ في سرقسطة في اسبانيا ثم تولوز في فرنسا وبازل في سويسرا ، ثم ذهب الى باريس وعمل مع فزاليوس في التشريح وفي سنة ١٥٥٣م الف كتابا ضخما اسمه بالعربية (اعادة المسيحية) حكم عليه بالموت حرقا بسببه وفي هذا المؤلف وصف مرور الدم من الشريان الرئوي الى الوريد الرئوي عن طريق الرئة . وجاء وصفها مشابها لوصف ابن النفيس ، بحيث يكون اقتباسا منه . وهناك ادلة على معرفة سرفيتوس للعربية .

« ويذكر استاذ تاريخ الطب في غرناطة ان الموريسكيون تعرضوا للاضطهاد خاصة الاطباء منهم وتمت محاكمة كثير منهم من قبل محاكم التفتيش Inquistion بتهمة الهرطقة Herticas وكانت تشمل كثير من الممارسات التي لا يمكن تعليلها ، فان شفاء المريض الذي لم يتمكن خبراء المحاكم والأطباء الأسبان من تعليل شفائه يعني انه قد شفى من قبل الشيطان وان الطبيب الموريسكي الذي عالجه متحالف مع الشيطان . واذا نظرنا الى اسماء الاطباء الذين حوكموا نجد انه يصعب معرفة كونها عربية مثل

Caspar Capdal, Martin Gaad, Jeraminc Pacher, Roman Ramirez, Pinteete, Fransisca of Corduba Jeramino Jover

وهذا الاخير اصل اسمه جابر كما جاء بشهادة احد الشهود في التحقيق ضده . ان هذه الاسماء تدل على ان هناك احتمالا قوياً بوجود اطباء عرب او من اصل عربي في اسبانيا واوربا بدلت اسماؤهم فاصبحت لا تدل على اصلهم العربي ، وانهم نقلوا ونشروا الطب غير المترجم . ومثال اخر على تبديل الاسماء فان احد المؤلفين اسمه ليون الافريقي Leo Africans ولكن اصل اسمه هو حسين بن علي الوزازي »(٦) .

واخيرا يجب ان نذكر ما قام به اليهود من ترجمة الكتب العربية الى العبرية ، خاصة عائلة ابن طبون Ibn Tibbon التي انتقلت من غرناطة الى جنوب فرنسا سنة ١١٥٠م ، ومارس الترجمة اربعة اجيال منهم . واستمان المؤلفون اليهود بهذه الترجمات عند وضع كتبهم باللغة اللاتينية ، وهكذا قدموا الطب العربي والعلم العربي الى اوربا باعتباره من انتاجهم .

(٦) الجليلي / البحث ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .

٢ ـ طريق فرنسا :

لقد كانت كاطالونيا ايضا مركزاً آخر لاشعاع العلم العربي وهي تشكل جزءاً من فرنسا الحالية وتعتبر مونبليه احدى مدنها الساحلية التي كانت في البداية عبارة عن محطة صغيرة لقوافل المسافرين بين ايطاليا والاندلس ثم ارتفع شانها في القرن الحادي عشر ، فشرع العلماء العرب او المتحلين بالثقافة العربية يتدفقون اليها حيث وضعوا فيها اسسا لمعهد علمي عظيم وبذلك تحولت هذه القرية الصغيرة الى مركز كبير للتجارة والعلوم والثقافة . ولما بدات شمس المدنية العربية بالغروب عن الاندلس في القرن الثاني عشر بسبب التعصب الشديد الذي اتصف به ملوك الاسبان هجر عدد كبير من العلماء العرب الاندلس قاصدين مونبليه لما كانت تتصف به من التسامح الديني وحرية التتبع العلمي وبذلك كان لهم الفضل في رقيها . وفي سنة ١٢٢٠ قام الكاردينال كونراد بتاسيس مدرسة مونبليه ونظمها على شبه مدارس الطب الاسلامية . واحتل الطب الاسلامي مركز الصدارة في برنامج التدريس فيها طيلة القرن الثالث عشر والرابع عشر فكان الاساتذة يشرحون كتب بن سينا والرازي وابو القاسم الزهراوي . وكانت هذه المدرسة على اتصال دائم مع المدارس العربية في جنوب اسبانيا الامر الذي يؤكد التاثير الفاعل لمدرسة مونبليه على تطور الطب الاوربي على الطريقة العربية .

ويعطينا كتاب الدروس والمفاتيح فكرة دقيقة عن برنامج مدرسة مونبليه من سنة ١٤٨٩ ـ الى سنة ١٥٠٠م . واللائحة التالية تبين عدد الكتب التي كانت تدرس كل علم واهمية المكانة التي كان يمثلها ابن سينا في تلك الايام .(٧)

(٧) حجازي ـ الدكتور عبدالرحيم / الطب الاسلامي عامل اساسي في خروج اوربا من عصر الظلام ـ بحث قدم للمؤتمر العالمي الاول للطب الاسلامي . بالاصل نقلا عن ارشيف جامعة مونبليه الكتاب الخامس لسنة (١٧٦٧) .

« عـدد الكتب في برنامـج مدرسـة مونبليـــــه ١٤٨٩ ـ ١٥٠٠م »

	١٤٨٩	١٤٩٠	١٤٩١	١٤٩٢	١٤٩٣	١٤٩٤	١٤٩٥	١٤٩٦	١٤٩٧	١٤٩٨	١٤٩٩	١٥٠٠
ابن سينا	٤	٣	٤	٤	٦	٥	٥	٤	٦	٥	٤	٣
جالينوس	٢	٠	٢	٠	٣	٢	٤	٢	٢	٢	١	٤
ابقراط	١	٠	٠	١	٢	١	١	١	٠	١	١	١

وقد بقي الطب الاسلامي يحتل مركزا مهما في تاريخ الدروس حتى منتصف القـرن السادس عشر . وكان الاسـاتذة المسـتعربون كثرة بين الأساتذة . ونجد في كتاب استروك(٨) ان احـد الأساتذة ويدعى رينه مورو ، يهاجم استاذا اخر يدعى جاك ديبوا لتعليمه الطب الاسـلامي دون غيره . ومن الأساتذة والشخصيات التي خدمت في مونبليه ارنولد فلانوفا Arnold of Villanova (١٢٣٥ ـ ١٣١٢) الذي ساح طلبا لعلوم العربية والذي يعتبر اخصب المؤلفين انتاجا بالنسـبة لزمانه واكثرهم تاثيرا بالآراء الطبية العربية ومن بين المؤلفين الذين ترجم من كتبهـم ابن سـينا والكندي وقسطا بن لوقا وابو العـلاء بن زهر ويعتبـر شـرحه « للنظـام الصحي السـالرني Regimen Sanitratis Salirnatum احسـن شرح لتلك القصيدة . وهنري موندفيل وكاي دي شوليا Guyde Chauliac (١٢٩٨ ـ ١٣٦٨) الذي ترجم القسـم الجـراحي من التصـريف للزهراوي فاقتبس منه كثيرا في كتابه الجراحة الكبرى Chirurgia Magna الذي انجز سـنة ١٣٦٣ وقد تضمنت كتبهم اقتباسا كثيرا مـن الكتب العربيـة او تضمنت مصطلحات عربيـة كثيرة .

ومن طلابها جلبـرت الانكليزي (حـوالي ١٢٩٠) Gilbertus Anglicus وجـون مـن كادسدن (١٢٨٠ـ١٣٦١) John of Gaddesden ـجون من اردن (١٢٠٧ـ١٣٩٠) John of Ardene الذين لهم منزلة كبيرة في الطب في انكلترا ؛ وبطرس الاسباني (حوالي ١٢٧٧) Petrus Hispanus الذي اصبح انبابا جون الحادي والعشرين وكان كتابه كنـز الفقـراء Thessurus Pauperum واسع الانتشـار .

ويقال بان مدرسة مونبليـه في ذلك الوقت اصبحت مركزاً رئيسياً لدراسة الطب وتميزت على مدرسة باريس بكثرة ما فيها من المخطوطات الطبية المهمة وبالاخص العربية منها .

وقد حصل في باريس ما حصل في مونبليه وسالبرنو من قبل فكان تنظيم وبرنامج تدريس المدرسة نسخة من السابقتين . وفصة لويـس الحادي عشر مع كتاب الحاوي للرازي تشير الى قيمة هذا الكتاب في ذلك العصر فقد اراد هـذا الملك ان يضع نسخة من الحاوي في مكتبتـه ، وطلب من مكتبة الجامعة اعارته اياه لنسخه . وبعـد مناقشـات عديدة بين الاسـاتذة قـررت الجامعـة اعارة الكتاب بعد الحصول على كفالة مالية ، مشكلة من ١٢ طاقماً فضياً للمائدة ومئة ريال من ذهب .

٣ ـ طرق صقلية وايطاليا :

كانت صقلية تعيش التأخر والجهل قبـل ان يفتحها العرب والمسلمون وقد تم فتحها ايام

(٨) المصدر نفسه بالاصل منقول عن جان استروك / ذكريات لخدمة تاريخ جامعة مونبليه ١٧٦٧ ارشيف جامعـة مونبليه ، الكتاب الخامس .

بني الاغلب في اوائل القرن الثالث الهجري حوالي سنة (٨٧٧م) بقيادة اسد بن الفرات . ومن ثم وبعد ان مدنوها اصبحت اهم المراكز لنشر الثقافة العربية الأسلامية في اوربا . فانشاوا في باليرمو العاصمة اول مدرسة للطب في اوربا ومنها انتشر الطب الى ايطاليا ، وكدليل على التأثير الفاعل للثقافة العربية في ايطاليا في تلك الحقبة انشاء مدرسة لتعليم اللغة العربية في جنوا وادخال كثير من الالفاظ والاصطلاحات العربية الى اللغة الايطالية وكان تسامح الحكام المسلمين في صقلية كعادتهم في كل مكان حلوا فيه ، عاملا مباشراً في ازدهار الثقافة والفنون والعلوم فيها حيث شملت لغات العالم العلمية الثلاث في ذلك الزمان وهي اللاتينية واليونانية والعربية ، وتم نقل المؤلفات من لغة الى اخرى وبذلك اصبحت صقلية خير نموذج لامتزاج الثقافات وصاحبة مدنية لاتينية يونانية عربية فريدة .

نبغ كثير من المترجمين في صقلية منهم فرج بن سليم اليهودي المعروف عند الغرب باسم فراجوت اوفراريوس الذي ترجم كتاب الحاوي للرازي وكتاب تقويم الابدان لابن جزلة البغدادي. والف سكوت اكثر كتبه في صقلية .

ونبغ في صقلية كثير من الاعلام العرب منهم الادريسي الجغرافي العربي المشهور الذي رسم الكرة السماوية وخريطة العالم لاول مرة . اما اشهر من نبغ في الطب من العرب فكان ابن جلجل الصقلي صاحب كتاب تاريخ الاطباء والحكماء . وابو سعيد ابن ابراهيم المغربي الصقلي مؤلف كتاب المنجح في التداوي واحمد بن عبدالسلام الشريف الصقلي صاحب كتاب الاطباء في الامراض من الفرق الى القدم لم يتوقف الزحف العربي الاسلامي في حدود جزيرة صقلية وما جاورها بل اتجه لفتح ايطاليا نفسها فقاموا بغزوات ناجحة شملت وسط ايطاليا وشمالها بما فيها روما . وقد ساعدت هذه الفتوحات على نشر الثقافة والعلوم العربية وعلى تقوية الصلات العلمية مع الثقافة اللاتينية لدى الطليان فنتج عن ذلك التقارب بحركة علمية نشطة دفعت باوربا سراعاً وبشكل اساسي في طريق الصحوة العلمية والنهضة الفكرية .

وان مركز الاشعاع الطبي في جنوب ايطاليا كانت في مدينة ساليرنو حيث ازدهر الطب العربي على يد اساتذة من العرب وغيرهم في اواخر القرن الحادي عشر وبفضل عدد من المترجمين الاكفاء اسست هذه المدرسة معيناً لا ينضب للثقافة والعلوم العربية ودعامة صلدة للنهضة العلمية الاوربية وبرزت مدرستها الطبية سنة ٩٨٥م .

وكان على راس هؤلاء المترجمين قسطنطين الافريقي (١٠٢٠ ـ ١٠٨٧) العربي الاصل والذي ولد في قرطاجنة في تونس وساح في البلاد العربية حيث اتقن اللغة العربية بجانب معرفته للغة اللاتينية واليونانية . وانتقل الى ايطاليا حيث اتصل بامير مدينة ساليرنو جيزوفلو وباخيه الطبيب . ثم مضى معظم حياته في دير مونت كاسينو حيث قام بترجمة الكتب العربية وبالتاليف . عمل بعض الوقت في مدرسة ساليرنو الطبية ، فاثر فيها تأثيراً بالغاً بترجمته عدداً من الكتب الطبية اللاتينية ، وادخاله التعليم الطبي العربي فيها كما انه كان يكتب ايضاً في القانون الصحي الذي كان يحرره عدد من اساتذة مدرسة ساليرنو . ويذهب البعض الى انه كان قد اسلم ولكنه كتم دينه خوفاً من الاضطهاد الذي كان ساندا ضد الاسلام والمدنية العربية خلال الحروب الصليبية . وظهرت اول طبعة من كتبه في بازل سنة ١٥٣٧م في سبعة اجزاء من الكتب التي قام بترجمتها كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن العباس المجوسي ، وكتب اسحاق بن سليمان الاسرائيلي في البول والحميات ، وكتب ابن الجزار وجالينوس وابقراط سابقاً الى اللاتينية . ويأخذ البعض عليه عدم نزاهته حيث كان ينقل من الكتب العربية وينسبها لنفسه وعلى الرغم من ذلك فان اثر كتبه بقي لفترة طويلة من الزمن في اوربا مما حدى بالكثيرين تسميته برائد الطب العربي في اوربا .

وكان في ساليرنو تلميذ له من اصل عربي يسمى يونس الفلكي .

ومن اشهر التراجمة في ساليرنو عدا قسطنطين الافريقي كان فرج بن سالم الذي ترجم كتاب الحاوي للرازي ومؤلفات حنين بن اسحاق الى اللاتينية وتقويم الابدان لابن جزلة .

« والفت كتب طبية في ساليرنو اظهرت ان اطباءها لم يمتصوا المعلومات الحديثة العربية فقط بل تمكنوا من توسيعها . واهم مؤلفات مدرسة ساليرنو هوالموجز الساليرني والنظام الصحي الساليرني Regimen Sanitatus Salernitonum الذي يبدو انه الف حوالي سنة ١١٠٠ ، وهو قصيدة في ٣٥٢ بيتا في الاصل . واشهر شرح لها هو شرح ارنولد فلانوفا (١٢٣٥ ـ ١٣١٢) Arnold of Villanova وهو طبيب واديب من كاتلونيا اتقن العربية وترجم منها والف باللاتينية . واشتهر من بين طلاب ساليرنو مايكل سكوت Michael Scot (١١٧٥ ـ ١٢٣٦) الذي تضمنت احدى وصفاته التخدير بالأستنشاق »(٩) .

وكان لتلاميذ مدرسة ساليرنو اثر بالغ في نقل العلم الى سائر جامعات اوربا ؛ حيث ذهب قسم منهم الى مدرسة مونبليه وآخرون الى نابلي وذهب بيرجين دي كوربي بعد ذهابه الى نابلي الى جامعة باريس . واستمرت هذه المدرسة محتفظة بهذه المكانة العلمية حتى سقوط مدينة ساليرنو في يد هنري السادس عندها تدهورت الحركة العلمية فيها واضمحلت مدرسة ساليرنو نهائياً في سنة ١٤٠٠م ثم سارت اغلب الجامعات الاوربية مثل باليرمو ، وبدوا ، ومونبليه ، وباريس ، واكسفورد بنفس الطريق معتمدة العلوم العربية اساساً في برامجها التدريسية ، حتى ان الطب العربي ساد الطب في اوربا طيلة القرون الوسطى.

وكان من طليعة ملوك الغرب الذين استفادوا من العلوم العربية (فردريك الثاني) امبراطور المانيا الذي اثر السكنى في صقلية الذي عقد اتفاقية مع الملك الكامل الايوبي خلال الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ ـ ١٢١٩) حيث اتصل بنوابغ علماء العرب ، فقرب اليه عبدالحق بن ابراهيم بن نصر فيلسوف الاندلس حينذاك ، كما درس وترجم الكثير من الذخائر العربية واهدى الكثير من الكتب الطبية والفلسفية الى جامعة بولونيا . وبعث بمسائل رياضية وفلسفية الى الملك الكامل وقد نجح في حلها عالم مصري واخر من الموصل في العراق . وكان له مترجم ومنجم يسمى ثادري تيودور وهو مسيحي من انطاكيا في الشام يقوم بترجمة الكتب العربية . وكان يعمل عنده ايضا ميخائيل سكوت حيث وضع له نقلا عن العربية خلاصة لاتينية لمؤلفات ارسطو مع شرح ابن سينا وسماه ملخص بن سينا .

ولم يقتصر تاثر الطب العربي على الدول الأوربية التي كانت بتماس مباشر مع العلوم الطبية العربية فحسب وانما كان تاثيره واضحا حتى في الدول الاوربية البعيدة كانكلترا حيث ان احد ملوكها جلب من ساليرنو سنة ١١١٠ الكتاب المشهور (النظام الصحي الساليرني) المعتمد على الطب العربي . وكان بين المترجمين المشهورين عدد من مستشرقي الجزر البريطانية كما ان مؤلفات بعض الاطباء الانكليز تضمنت اقتباسات كثيرة من الرازي والزهراوي، واصبح الطب المتعرب مسيطراً على انكلترا . واستمر الأطباء فيها يتداولون الكتب العربية من سنة (١٢٥٠ ـ ١٥٠٠) وبعد ذلك لسنوات حيث اصبح تداول الكتب ميسوراً بعد انتشار الطباعة وبعد النهضة الاوربية استمرت اعادة طبع الكتب الطبية العربية من امثال قانون ابن سينا وبعض كتب الرازي والزهراوي في القرن السابع عشر في اوربا .

ولا يفوتنا ان نذكر اثنين من اساتذة بادوا الاول كولومبوس (١٥١٠ ـ ١٥٩٩) Realdus Columbos الذي الف كتابا بعنوان (في التشريح) De Re Anetomica نشر سنة ١٥٥٩

(٩) الجليلي ص ١٩٤ .

فيه وصف لمرور الدم في الرئتين والثاني فالفيردي Valverde. الذي نشر كتاب (التشريح وتاريخه) سنة ١٥٥٤ والذي ذكر فيه ايضاً اراء مشابهة لكتاب كولومبوس .

« وقد دلت الدراسة المفصلة للموضوع على ان سرفيتوس يظهر معرفة واضحة لنظرية ابن النفيس وانه اعتمد عليها ، وان فالفيردي مطلع على اراء سرفيتوس ، وان كولمبو مطلع اطلاعاً مباشراً على نظرية ابن النفيس ومقولة سرفيتوس »(١٠) .

٤ ـ الحروب الصليبية :

استمرت هذه الحروب من (١٠٩٥ـ١٢٩١) وعادت القدس سنة ١١٨٧ للمسلمين بعد معركة حطين . تعرف الغربيون خلالها على العلوم العربية وتعلموا اللغة العربية ، وبرز منهم علماء احبوا هذه اللغة وتتلمذوا على الاساتذة العرب ، منهم ادلارد بات الذي اشتهر بنشاطه العلمي بين (١١١٥ ـ ١١٤٢) ، حيث عاش في الشرق لسنوات عديدة والف كتباً عديدة فيها الكثير من الاراء العلمية العربية ، كما قام بترجمة عدد اخر من الكتب العربية الى اللاتينية وهناك مترجم اخر نشط في تلك الفترة وهو ستيفانود بيزا الذي عاش في انطاكيا نحو سنة ١١٢٧م وقام بأعادة ترجمة كتاب الصناعة الطبية لعلي بن العباس المجوسي . وساهم المرضى والاطباء من المحاربين العائدين ايضاً في نقل كثير من الوصفات الطبية العربية الى الغرب وكان المحط الرئيسي لهم لدى العودة مدينة ساليرنو حيث افاد في دفع الحركة الطبية في مدرستها . وعلى الرغم من كون تاثير الحروب الصليبية على الثقافة والطب لم يكن كثيراً الا ان ذلك التاثير ظهر جلياً في اوربا بعد القرن الثاني عشر بظهور المستشفيات وملاجيء المجذومين والحمامات العامة التي اخذوها عن البلاد العربية .

(١٠) المصدر نفسه ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

٥ ـ الرحلات :

يعود فضل انتقال النفوذ العلمي العربي من الشرق الى الغرب عن طريق الرحلات الى نوعين منها : نوع قام به العلماء العرب انفسهم نتيجة الاتصال المستمر بين الشرق والغرب عبر افريقيا واسبانيا من جهة والعواصم العربية من جهة اخرى « ولاشك ان الحج كان ذا تاثير شديد في نقل الافكار والآثار العلمية ، ولم تكن الرحلة الى مكة للحج فقط بل كانوا يعملون في طلب العلم نفسه ، وقد عين لوكرير مواد من هذا القبيل فقال ، ان محمد بن عبدون ذهب من الاندلس الى مصر وكان يمارس التطبيب في مستشفى الغسطاط ، وان ولدى يونس الحراني ذهبا يحصلان الطب في بغداد وبقيا عشر سنوات ، كما ذهب عمر بن حفص الى القيروان للتحصيل وكما كان يذهب الاطباء من الغرب الى الشرق كان الأطباء يأتون من الشرق الى الغرب ويقصدون سلاطين العرب في اسبانيا فكانت الكتب نظير الطنافس الحريرية والحلي والجواهر يؤتى بها من الشرق الى الاندلس حتى اجتمع في خزانة قرطبة زهاء ستمائة الف مجلد في فهرس يقع في اربعة واربعين مجلداً »(١١) . ومن بين هؤلاء ابو مروان بن زهر الاندلسي الذي ذهب الى المشرق ودخل القيروان ومصر وتطبب هنالك زمناً طويلاً(١٢) واسحق بن عمران الذي جاء من بغداد الى تونس وغيرهم كثير .

اما النوع الاخر من الرحلات ، فقد قام به الرحالة الغربيون طلباً للتجارة والسياحة وتلقي العلم . فعلى سبيل المثال ماركوبولو صاحب الرحلة السياحية المشهورة . وليوناردو دافنشي الذي ولد في بيزا عام (١١٨٠م) وخلال عمله في التجارة في (بجاية) في الجزائر تعلم الحساب وزار طوردس وسبته وتونس وتردد على مكتبات الاسكندرية ودمشق وناقش كبار العلماء في القاهرة ودرس كل ماحوته مخطوطات كبار الرياضيين من الاغريق والهنود والعرب فنبغ في

(١١) الشطي ـ د . احمد شوكت / العرب والطب ص ١٢٤ .
(١٢) ابن ابي اصيبعة ص ٤١٧ .

ذلك وبعد أن عاد الى ايطاليا تنبه اليه القيصر فردريك الثاني وضمه الى خلصائه من العلماء . فهناك الف الكتب وعلم الغربيين الارقام العربية والصفر العربي .

والطبيب الانطاكي اندرياس البياكوس Andereas Alpagus (١٤٥٠ - ١٥٢٢) قضى اكثر من ثلاثين سنة في سورية حيث ذهب خصيصا لدراسة اللغة العربية وللاطلاع على النصوص والمخطوطات العربية في اصولها ثم عاد الى بادوا وعين استاذا لكرسي الطب في جامعتها، لترجم عدداً من الكتب العربية الى اللاتينية مع شروح على بعضها ، نشر قسم منها بعد وفاته منها ترجمة شرح ابن النفيس للقسم الخامس لقانون بن سينا طبع سنة ١٥٢٧ ، ونقح ترجمة جرارد الكريموني لقانون ابن سينا طبع سنة ١٥٢٧ واعيد طبعه بعد ذلك مرات متعددة وبلغت طبعات القانون ٣٦ طبعة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وطبعت ترجمته لكتاب الادوية لابن البيطار سنة ١٦٠٢ « ولكن من المؤكد انه لم تطبع كل الكتب التي ترجمها الباكوس لغرض النشر .

وقد أصبحت نسخته من شرح التشريح لابن النفيس في مكتبة اسرة ناني Nani في البندقية وقد اطلعت على فهرس المكتبة الذي اعده استاذ اللغات الشرقية في جامعة بادوا سيمون اسماني Simon Assemani ونشر سنة ١٧٩٢ في بادوا، فاذا هو يحتوي على وصف النسخة التي كتبت سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م اي خمس وخمسين سنة بعد وفاة المؤلف ابن النفيس ، وتقع في ٣٠٦ صفحات . ان لوجود هذه النسخة اهمية كبرى في تاريخ اكتشاف الدورة الدموية »(١٣) .

ومن هؤلاء ايضا تيودور الانطاكي الذي قرا للفارابي وبن سينا واقليدس ودرس الرياضيات دراسة عميقة على يد العالم الكبير كمال الدين يونس (الذي ولد في الموصل عام ١١٥٦م وتعلم في النظامية ودرس في الكمالية في الموصل والذي حل المسائل الهندسية التي طرحها فريدريك الثاني) ثم جذبت تيودور شهرة فردريك فغادر الشرق ليعمل في بلاطه(١٤) مع جملة من كان عنده من العلماء في ترجمة الكتب العربية ونقلها .

---

(١٣) الجليلي / البحث ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
(١٤) هونكه - سيغريد / شمس العرب تسطع على الغرب ص ٩١ - ٩٢ .

● * ●

WWW.ATTAWEEL.COM